

وسيلة للتعرف

على الحياة الفكرية

للسُّعُوبِ



د. قاسم عبده قاسم

التاريخ من أكثر علوم الانسان ومعارفه ارتباطا بالانسان . فالتاريخ يلهث وراء الانسان من عصر الى عصر الى عصر آخر ، باحثا ومنقبا ومستفسرا في محاولة دائمة دائبة للإجابة عن سؤال الانسان الخالد حول ماهيته ومصيره وحقيقة دوره في هذا الكون أما الأدب فهو تعبير وجداني عن هذا الانسان . والعلاقة بين التاريخ والأدب علاقة جدل تحمل التأثير والتأثر المتبادل فيما بينهما .

وبينما يرصد التاريخ أفعال الانسان ومنجزاته في رحلته ، التي لم تتم بعد ، عبر الزمان ، ويحاول تفسيرها وتحليلها وإيجاد العلاقة السببية الداخلية بينها ، يهتم الأدب بتسجيل عواطف الانسان وانفعالاته . ولا يمكن أن نفهم الانسان ودوره التاريخي دون التعرف على منجزاته وفعاله من ناحية ، وعواطفه ومشاعره وانفعالاته الوجدانية من ناحية أخرى .

ومن ناحية أخرى ، لم يعد بوسع المؤرخين أن يتجاهلوا النتاج الأدبي ، على شتى مستوياته اذا أرادوا استرداد صورة عصر ما ، أو مجتمع ما ، من ذمة الماضي . واذا كان الانسان هو الموضوع المشترك لكل من الأدب والتاريخ ، فإن هذا الانسان نفسه هو صانع التاريخ ومبدع الأدب ، كما أن الزمن اطار ضروري للتاريخ والأدب على حد سواء .

ومنذ فترة بعيدة صارت « الرواية التاريخية » نمطا من الانتاج الأدبي يحظى بالتقدير والاعتراف من جانب النقاد ، والمشتغلين بالأدب ، والمؤرخين أيضا . كذلك صار « تاريخ الأدب » فرعا مهما من فروع الدراسات الأدبية في الجامعات ومراكز

وعلى الرغم من أن الزمن الذي كانت كتابة التاريخ فيه ضربا من ضروب الأدب قد ولى الى غير رجعة ، وعلى الرغم من أن الأمثلة والنماذج التاريخية لم يعد دورها قاصر على كونها أدوات بلاغية في جعبة أرباب الأدب ، وعلى الرغم من التقدم الهائل الذي أحرزته الدراسات التاريخية في العقود الأخيرة ، وعلى الرغم من التطورات الرائعة التي لحقت بفروع الدراسات الأدبية والابداع الأدبي نفسه – على الرغم من هذا كله فإن العلاقة بين التاريخ والأدب لم تنفصم عراها وانما ازدادت رسوخا . فالتاريخ ما يزال مجالا خصبا لأرباب الأدب يلهمهم الابداع . ويقدم لهم النماذج ، كما يساعدهم على تطوير المذاهب النقدية .

صارمة ، مسترشدا بمصادره (ومن بينها الأدب الشعبي بطبيعة الحال) فى محاولة لتحقيق هدفه فى الاجابة على أسئلته الثلاثة .

أما الفنان ، فانه دائماً فى حل من القيود الصارمة التى يفرضها المؤرخ على نفسه كما أنه فى ابداعه يكون بعيداً عن استخدام المنهج العلمى بيد أنه يهدف الى بعث قيمة بعينها ، أو تكريس مفهوم ما ، أو تجسيد مثل أعلى ، أو حتى مجرد دغدغة مشاعر الفخر والاعتزاز الوطنى أو القومى ، أو القبل .

لقد فرق أرسطو فى كتابه « فن الشعر » بين الشعر بوصفه التمثيل الأعلى ، وبين التاريخ بوصفه تصوير الأحداث « . . . لأن الشعر يمثل ارتباطاً ضرورياً ومحتملاً بين الأفعال لا يكفى لتحقيقه تصوير الواقع وحده . وعالم الشعر ، وإن كان مخالفاً لعالم الواقع ، أقدر على ادراك القلب الانسانى لأنه يحسن استنباط المنطق من الأفعال الانسانية والانفعالات . . . ومهمة الشاعر الحقيقية ليست فى رواية الأمور كما وقعت فعلاً ، بل رواية ما يمكن أن يقع . والأشياء ممكنة اما بحسب الضرورة أو بحسب الاحتمال . ذلك أن المؤرخ والشاعر لا يختلفان بكون أحدهما يروى الأحداث شعراً والآخر يرويها نثراً (فقد كان من الممكن تأليف تاريخ هيرودتس نظماً ، ولكنه كان سيظل مع ذلك تاريخاً سواء كتب نظماً أو نثراً) ، وانما يتمايزان من حيث كون أحدهما يروى الأحداث التى وقعت فعلاً ، بينما يروى الآخر الأحداث التى يمكن أن تقع . . . » (١) .

وعلى الرغم من أن كلمات أرسطو توضح أن الشاعر لا يلتزم بالواقع الذى يلتزم به المؤرخ -- وهى حقيقة يدركها الباحثون على الدوام -- فان الشاعر يظل مصدراً مهماً للمؤرخ لأنه « . . . أقدر على ادراك أسرار القلب الانسانى ، لأنه يحسن استنباط المنطق من الأفعال الانسانية والانفعالات . . . » هذا الجانب العاطفى الوجدانى والنفسى فى الشعر ، هو ما يميز الأدب الشعبى أيضاً من ناحية ، وتفتقر اليه المصادر التاريخية التقليدية من ناحية أخرى ، كما أنه يساعد المؤرخ

البحث والدراسة . ومن ناحية أخرى ، لم يعد بوسع المهتمين بالدراسات الأدبية أن يمارسوا عملهم دون الاستعانة بالدراسات التاريخية . كذلك فان غطرسة المؤرخين الذين نبذوا الأدب من بين مصادرهم ، ولم يعترفوا سوى بالوثائق والمصادر التقليدية وشهادات المؤرخين المعاصرين ، قد تغلّت عن مكانها لنوع من الاعتراف الحميد بأهمية النتاج الأدبى ، والشعبى منه على نحو خاص ، فى البحث التاريخى ، ولم يعد الباحثون الذين يهتمون الأدب من بين المصادر التاريخية المتاحة قادرين على فهم العصور أو الظواهر التاريخية فهما جيداً .

هذا التداخل بين الأدب والتاريخ ، والذى هو نتيجة حتمية لموضوعها المشترك هو الانسان (فى سعيه الدائب داخل نطاق المكان وفى اطار الزمان) هو الذى جعل الحدود بين الأدب والتاريخ حدوداً واصله غير فاصلة ، وفى منطقة الحدود المشتركة بين الأدب والتاريخ نجد الكثير مما يمكن أن ينير السبيل أمام من يشتغلون فى ميدان التاريخ أو فى حقل الأدب . ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن ثمة تماثلاً بين علم التاريخ والابداع الأدبى ، ولكنه يعنى أن هناك علاقة تجمعهما .

ويجمل بنا أن نترث بعض الشئ لنتساءل الفرق بين الباحث فى حقل التاريخ من ناحية ، والمبدع فى دنيا الفن والأدب الشعبى من ناحية أخرى . فالمؤرخ ينشد الحقيقة المجردة محاولاً الاجابة على أسئلة ثلاثة أساسية ، ماذا ، وكيف ، ولماذا ؟ وهو فى بحثه عن اجابات هذه الأسئلة الثلاثة يحاول إعادة بناء صورة الماضى من خلال الاجابة على السؤال الأول : ماذا حدث ؟ ثم يبحث من خلال تحليله لمادته ومصادره عن اجابة السؤال الثانى : كيف حدث ؟ وربما توج عمله بالنجاح اذا توصل الى اجابة السؤال الثالث : لماذا حدث ؟ من خلال البحث عن العلاقة السببية داخل الظاهرة التاريخية .

والمؤرخ فى هذا الصدد يتسلح بمنهجه الاستردادى وما يقتضيه هذا المنهج من قيود

(١) أرسطوطاليس . فن الشعر (مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابى وابن سينا وابن رشد ، ترجمه عن

ليونانية الدكتور عبد الرحمن بدوى . مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٣م) ، ص ٢٦ .

على استكمال ملامح صورة المجتمع الذى يدرسه من ناحية ثالثة .

وهذا هو بالضبط ما يعطى المشروعية العلمية لكل محاولات الدارسين فى مجال التاريخ الاجتماعى ، وتاريخ الأفكار ، لبحث ملامح الظاهرة التى يهتمون بها بين ركام الموروث الشعبى . وإذا كان هناك علامات وإشارات كثيرة كامنة فى التراث الشعبى تكشف عن بنية مجتمع ما فى فترة تاريخية بعينها ، فإن الأدب الشعبى بشتى أنماطه وأشكاله ، مؤشر جيد للتعرف على الحياة الفكرية فى هذا المجتمع .

فالتراث الشعبى يكشف ، بوضوح شديد ، عن النظام القيمى والأخلاقي للمجتمع ، كما يكشف عن اتجاهاته الفكرية ، وتصوراتها للكون ، وطبيعة العلاقة بين عناصر الكون ، وأفكار أبناء المجتمع عن الطبيعة وما وراء الطبيعة ، والسلطة ، والدين والأسرة ، فضلا عن الممارسات الفكرية والعقلية التى تجتذب أبناء هذا المجتمع .

وقد تنوه منا الحقيقة ، أو نتوه نحن عنها ، إذا توهمنا أن البحث عن الحياة الفكرية لمجتمع ما ، يكون من خلال البحث فى النتاج العلمى والأدبى الراقى الذى يمثل نتاج الصفوة المثقفة والمتعلمة من أبناء هذا المجتمع فقط . صحيح أن نتاج أعمال العلماء والأدباء المعروفين مؤشر دال على اتجاه بوصلة الحياة الفكرية ، ولكن الصحيح أيضا أن نتاج الأدباء والفنانين الشعبين والمجهولين ، الذى يأخذ شكلا تراكميا ، يجعل اتجاه هذه البوصلة أكثر دقة . فإذا كان أدب الصفوة ونتاجها العلمى بمثابة العقل الواعى للمجتمع ، فإن الأدب الشعبى هو عقلها الباطن المعبر بصدق عما يدور فى وجدان المجتمع ويعتمل فى قلبه .

وهنا يجب أن نتذكر أن أهم التطورات فى ميدان الدراسات التاريخية جاءت مواكبة لتطورات اقتصاديا واجتماعية وسياسية جعلت جماهير الناس العاديين أصحاب الحق الأول فى تسيير حياتهم ، وصارت الشعوب مصدر السلطات فى بلاد الديمقراطيات الحديثة ، كما أن النظم الاشتراكية أسست شرعيتها على أساس الاهتمام بشئون الجماهير . وقد أدى الى الاهتمام بالناس صناعات التاريخ الحقيقيين ، وازدهرت دراسات

كثيرة تهتم بحركة الناس فى مجال علم الاجتماع وفى الانثروبولوجيا ، والأدب والفن الشعبى . وفى مجال الدراسات التاريخية تخلى التاريخ عن مكانه التقليدى فى قصور الحكام وفى ساحات الحروب لينزل الى خضم الحياة العامة باحثا عن اجابات لأسئلته الثلاثة فى الشوارع والطرق والأسواق والحقول والمصانع وقاعات الدرس ، وراح يفتش بين جموع الفلاحين ، وجماهير العمال ، وجماعات المثقفين والفنانين . . . وبعبارة أكثر وضوحا بدأ التاريخ يدرس أحوال صناعات التاريخ الحقيقيين . وكانت النتيجة أن ظهرت للتاريخ فروع كثيرة فى شتى نواحي النشاط الانسانى ، ومنها التاريخ الاجتماعى وتاريخ الفكر .

ودراسة الحياة الفكرية فى مجتمع ما ، تدخل فى اطار فرع أشمل من فروع الدراسات التاريخية ، وهو « التاريخ الاجتماعى » الذى يدرس أحوال المجتمع البشرى عبر التاريخ ، سواء من حيث التركيب الاجتماعى ، أو البناء الطبقي ، وتاريخ الطبقات الاجتماعية ، والعادات والتقاليد ، أو الحرف والصناعات والأسواق ، فضلا عن البنيان السكانى ، وعلاقات القوى الاجتماعية ببعضها البعض ، كما يدرس الأقليات وعلاقاتها السياسية والاجتماعية . ومن ناحية أخرى يدرس التاريخ الاجتماعى الاطار الفكرى الذى يتحرك المجتمع داخله : اذ يدرس القيم والمثل والأخلاقيات ، كما يهتم برصد التوجهات الفكرية والايديولوجية للمجتمع .

ولا شك فى أن لكل مجتمع نظاما من القيم والمثل والأخلاقيات والمواقف الوجدانية تحكم حركته العامة ، وتمثل الجزء الباطن من عقله العام . ومن ناحية أخرى ، فانه من المسلم به أن أية ظاهرة تاريخية نتاج للتفاعل بين الانسان وبيئته فى اطار الزمان . والظاهرة التاريخية التى يدرسها الباحث فى التاريخ الاجتماعى محصلة لأفعال جزئية عديدة للأفراد الذين تتكون منهم طبقة اجتماعية ما ، أو مجتمع بأسره . ولا يمكن فهم أية ظاهرة تاريخية اجتماعية دون التعرف على الايديولوجية التى تحرك المجتمع أو الطبقة فى اطارها . وإذا أخذنا بالرأى القائل بأن الايديولوجية لا تشمل الأفكار العامة والنظريات

فقط ، وإنما تشمل أيضا كل أنساق القيم والمعتقدات ، فانه يبقى علينا أن نلاحظ أن الظاهرة التاريخية - خصوصا في مجال دراسة التاريخ الاجتماعى - لا تصلنا كاملة من خلال شهادات المؤرخين المعاصرين والوثائق والسجلات التاريخية التقليدية . فالمؤرخون وكتاب الوثائق يسجلون جوانب جزئية من الظاهرة التاريخية يعتقدون أنها الجوانب المهمة ، أو الأكثر أهمية ، ويفضون النظر عن تسجيلات أخرى تلقائية ووجدانية يعبر بها المجتمع عن رؤيته للظاهرة وتفسيره لها . وهذه التسجيلات المنسية هي الموروث الشعبى فى ميادين فنون الشكل وفنون القول التى يحملها المجتمع كل أفكاره وآماله وتطلعاته .

ومن المسلم به أن النتائج التى تولدها ظاهرة تاريخية فى أى مجتمع انساني لا تظهر بين عشية وضحاها ، كما أنها لا تنبت فجأة من غياهب المجهول . ومن ناحية أخرى فان هذه النتائج والآثار لا تختفى بمجرد انتهاء الحدث التاريخي الذى أفرزها ، وإنما تتخذ لنفسها شكل تيار اجتماعى - ثقافى مستمر ومتصاعد بحيث يفرض نفسه فى فنون المجتمع وآدابه التى درج الباحثون على تسميتها . « التراث الشعبى » . وبعض هذا التراث الشعبى يتراكم من خلال فنون الشكل ، مثل التصوير والرسم والزخرفة وصناعة الحلى والثياب والسجاد ، وقوش المنازل . وما الى ذلك . وبعضه الآخر ينتسب الى فنون القول : مثل السير والحكايات الشعبية ، والنوادر والأمثال ، والقصص الرمزي ، والفوازير والأحاجى والألغاز ، فضلا عن الزجل والبلايق والشعر الساخر (٢) .

وغالبا ما يتخذ الأدب الشعبى لنفسه قالب المآثورات الشفاهية التى يتم تناقلها عبر الأجيال بالرواية الشفاهية التى تتأثر عادة بثقافة الراوى نفسه ، وبالوسط الاجتماعى الثقافى الذى تدور فيه الرواية . يودى هذا بالضرورة الى تحميل الرواية (سواء كانت سيرة شعبية أو شعرا ، أو نادرة ، أو غيرها) بطبقات فوق طبقات من المفاهيم

الفكرية المتراكمة عبر العصور ، والروايات ، فيما يشبه طبقات الأرض التى يهتم بها الجيولوجيون وما يزال الجدل محتدما حتى اليوم حول مدى جدارة هذه المآثورات الشفاهية بأن تكون من بين مصادر المؤرخ بسبب المشكلات المنهجية . ويرى بعض الباحثين أن اكتشاف النص الاصلى القديم ضرورى لكى نتبين مقدار الحقيقة التاريخية فيها بحيث يمكن تقييم أهميتها أو تقدير قيمتها (٣) .

بيد أن أصحاب هذا الرأى من الباحثين يبحثون فى مدى جدارة المآثورات الشعبية الشفاهية بأن تكون مصدرا للمؤرخ « باعتبارها تقريرا صادقا عن الأحداث » ، وهو أمر لا يمكن لمن يدرس التاريخ الاجتماعى أن يعول عليه فى دراسة هذه المآثورات الشفاهية التى يتم تناقلها على ألسنة الرواة الذين يضيفون إليها ، يعدلون من بنيانها باستمرار بحيث تلبى حاجات المستمعين الثقافية / الاجتماعية . ولذلك فان كل نص من هذه النصوص الشفاهية يعتبر وثيقة قائمة بذاتها ينبغي فهمها فى ضوء الوظيفة الاجتماعية / الثقافية التى تقوم بها .

وفنون الأدب الشعبى لا تهتم برصد الأحداث والوقائع التاريخية ، وإنما ترصد رأى الناس فى الأحداث التاريخية والشخصيات أيضا . وهذا النمط من الفن الشعبى ينتج عن التفاعل بين الفن والتاريخ . إذ أن الحيال الشعبى حين يختار التاريخ مجالا لعمله ، لا يهتم بشئ ، قدر اهتمامه بالاستجابات العقلية والعاطفية لمن يتلقون هذا الابداع الشعبى . ومن اللافت للنظر أن الشكل التراكمى الذى يتخذه الفن الشعبى يأتى ناتجا للتفاعل الايجابى بين الراوى وجمهوره ، وكثيرا ما يتدخل الجمهور فى تعديل شكل المآثور الشعبى بحيث يأتى تعبيرا دقيقا عن المواقف الوجدانية الشعبية .

والموروث الشعبى ، بهذا المعنى ، يحدد لنا الاطار الفكرى للمجتمع البشرى ، إذ أن أبناء المجتمع يودعون فنونهم الشعبية ، بمختلف أنماطهم ، توجهاتهم الفكرية وآراءهم عن الحياة

(٢) قاسم عبده قاسم . بين الأدب والتاريخ (دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع . ١٩٨٦م) ، ص ٦٩ - ص ٧٠ .

(٣) يان بانيسا . المآثورات الشفاهية (ترجمة وتقديم د. أحمد مرسى . دار الثقافة القاهرة ١٩٨١م) ،

والموت والكون ومظاهر الطبيعة ، والدين .
والخرافات والأساطير ، ورؤيتهم لمفاهيم الحق
والباطل ومثل الشجاعة والبطولة ، وقيم الشرف
والنبيل ، ومقاييسهم فى الجمال ، وتصورهم
للعالم الخارجى ، وعلاقتهم بالبيئة . . . وما الى ذلك .
 ففى ثنايا الملاحم الشعرية ، والسير الشعبية ، والحكايات الخرافية ، والأحاجى والألغاز والنكات والطرف ، وفى طبقات الأهازيج والأغنيات الشعبية ، والأزجال ، والبلايق ، نجد الخيال الشعبى يرسم ملامح البطل الذى يفضل مجسدا للبعد الدينى والبعد الجنسى والبعد العسكرى ، ونجده يفضل الحاكم فى صورة الزاهد الذى يقترب من عامة الناس فى أفكاره وتصرفاته ، كما نجده يرسم صورة زاهية لجمال المرأة بحيث تجتمع فى البطلة كل صفات الجمال القياسية فى الخيال الشعبى ، وفى مقابلها صورة بشعة قاتمة لأعدائه الذين يخلع عليهم كل الصفات المقززة فى سخاء شديد .

من الظواهر التى كانت الأسطورة وسيلته فى تفسيرها ، فإن الموروثات الشعبية ظلت تحتفظ لنفسها بقيمة كبرى باعتبارها تراثا يغلفه الخيال ويتزامن مع موروث واقعى هو حوادث التاريخ المجردة ومن المعروف أن الاطار الفكرى العام لأى مجتمع بشرى يتكون من تراكم الخبرات التاريخية والتقنين والتوصيف الأخلاقى والفكرى الذى يضعه هذا المجتمع لنفسه نتيجة لما اكتسبه من هذه الخبرات . وإذا كان التاريخ يحمل لنا الواقع ، أو جزءا من هذا الواقع ، فإن الموروث الشعبى يحمل لنا الجانب غير المادى من هذا الواقع ، وهو جانب الانفعالات النفسية والرؤى العاطفية لحدث تاريخى ما ، أو شخصية ، أو ظاهرة ، أفرزها التاريخ على أرض الواقع فاحتفظ بها الخيال الشعبى بين لفائف الخيال والوجدان .

والأدب الشعبى ، بصفة عامة ، يحمل ما يمكن أن نسميه التفسير الشعبى التعويضى للحوادث التاريخية . وهو أسلوب يلجأ اليه الخيال الشعبى الجماعى من خلال التراكمات التى يضيفها كل فنان شعبى يتناول النص بالرواية ، ومن خلال اضافات جماهير السامعين لهذا النص الذى لم يكن دورهم قاصرا على التلقى والاستجابة السلبية . والأدب الشعبى يلجأ لهذا الأسلوب النفسى التعويضى لكى يتجاوز الواقع بحدوده الزمانية والمكانية ضوب اللامحدود ، زمانا ومكانا ، وذلك لكى يقدم للناس ما تحتاجه عقولهم ونفوسهم من تعويض . والصياغات الخيالية فى الأدب الشعبى تصنع متنفسا حقيقيا للمشاعر الشعبية من ناحية ، ولتبرير مشاعر الاحباط والحيرة فى أوقات الأزمات من ناحية أخرى .

وفى تصورنا أنه لا يمكن لمؤرخ أن يزعم أنه يفهم مجتمعا ما ، دون التعرف على وجدان وعواطف وأفكار واتجاهات ومواقف وآراء هذا المجتمع فى أحد العصور التاريخية . وهذه كلها أمور يمكن رصدها من خلال الدراسة التحليلية للأدب الشعبى الذى أنتجه هذا المجتمع . ومن المعلوم أن أفضل المصادر التاريخية للباحثين فى مجال دراسة التاريخ هى تلك التى لم تكتب بقصد أن تكون تاريخا . والأدب الشعبى أدب تلقائى يحمل

ومن هنا يقدم لنا الفن الشعبى ، والموروث الشعبى عموما ، ما يمكن أن نسميه تجاوزا « التاريخ الوجدانى » الذى ينتج عن التفاعل بين الفن والتاريخ . فالفن الذى يتسرب الى الوجدان يعبر من ناحية أخرى عن الانفعالات والمشاعر التى يعجز بها هذا الوجدان والتاريخ الذى ينقل الى الانسان تراث الأجيال ومعارف السابقين هو الذى يشكل الانسان على الرغم من أنه صناعة انسانية أيضا . والتفاعل بين الفن والتاريخ ، بين المشاعر والحقائق ، يخلق لنا ما يمكن تسميته الرؤية النفسية الشعبية للتاريخ .

ولأن المجتمع البشرى فى حاجة دائمة الى معرفة تاريخه لكى يظل على اتصال بماضيه رغبة فى فهم الحاضر واستشراف آفاق المستقبل ، فانه ينقل هذه المعرفة شفويا من جيل الى جيل يليه وقد غلفها الكثير من الخيال والمشاعر والعاطفة . ومن خلال حوادث التاريخ التى يتناقلها عامة الناس مشافهة ، يختارون حدثا تاريخيا ، أو بطلا من أبطال تاريخهم ليكون موضوعا ومحور لحكاية شعبية يحملونها مثلهم وقيمهم العليا .

وعلى الرغم من أن الانسان ، عموما قد قطع شوطا كبيرا صوب العقلانية والتخلص من الرؤية العاطفية ، كما أنه اكتشف بقوانين العلم كثيرا

القيم والاتجاهات والأفكار التي هي أساس العمل الفني الشعبي دون اهتمام بالحدود الزمانية أو المكانية ، ودون اهتمام بصحة الوقائع أو تسلسلها التاريخي ، ومن هنا فإن الباحث في مجال التاريخ الاجتماعي ينبغي أن يبحث فيها عن اتجاه الفكر والثقافة بمعناها الواسع في هذا المجتمع خلال العصر الذي يهتم به .

ولا ينبغي لنا ، من ناحية أخرى ، أن نتوقع أننا سنجد في التراث الشعبي تاريخاً بالمعنى المتعارف عليه ، وإنما لنا أن نتوقع أن نجد فيه صياغة وجدانية لهذا التاريخ ومن ثم فإن على الباحث أن يستخرج من طيات الأدب الشعبي ما يعبر عن رأى الناس الحقيقي في حوادث التاريخ وأشخاصه ، سواء من خلال الأوصاف الساخرة التي أطلقوها على حكامهم في الطرائف والنكات ، أو من خلال إعادة صياغة شخصيات الحكام على نحو يجسد رأى الجماهير فيهم ، أو من خلال تفسيرهم لأسباب الحوادث التاريخية التي تركت تأثيراً عميقاً في حياتهم .

★ ★ ★

وإذا انتقلنا الى مجال الأمثلة والنماذج الدالة على ما سبق أن طرحناه في الصفحات السابقة .
يجب أن نلاحظ بداية أنه في تراث مختلف شعوب الأرض ما تزال الملاحم الشعرية والحكايات الشعبية الخيالية تعتبر جزءاً من أهم المصادر التاريخية التي تدلنا على اتجاهات الحياة الفكرية عند تلك الشعوب . بل إن بعض الباحثين يرون أن هذه الملاحم تمثل المرحلة الانتقالية بين عصر الأسطورة وعصر التاريخ . إذ أن التسجيلات الأولى (مثل ملحمة جلجامش الأكادية البابلية . وما كتبه قداما المصريين ، وتصورات رج فيدا الهندية ، وأفكار الكنعانيين والفينيقيين القدماء

التي أخذها عنهم اليهود ونسبوها لأنفسهم) كانت من الضبابية والخيال بحيث وصفت بأنها أجيالاً الأساطير ، على الرغم من أنها تضم مزيجاً من التاريخ والخيال الشعبي . وفي هذه الكتابات الباكورة يختفى الزمان التاريخي الذي يميز الكتابات التاريخية (٤) .

والإلياذة والأوديسا المنسوبان الى هوميروس تصلحان مثالا جيدا للدلالة على ما نطرحه من أفكار (٥) . وإذا كان هوميروس حقا هو الذي نظمهما فمن المؤكد أنه لم يبدأ من فراغ ، أو من نقطة اللاشئ ، وإنما كان تحت يديه قدر كبير متراكم من التراث الأدبي الشعبي حول الأحداث التي مرت باليونانيين القدماء على مر الأجيال وحول القيم والمثل التي كانت تحكم حياتهم . ويمكن لمن يدرس الحضارة الاغريقية أن يستخدم ملحني هوميروس دون أن يقع في منزلق الخطأ . ذلك أن الباحثين يعتمدون على الإلياذة والأوديسا لمعرفة الاتجاهات العامة للأوضاع والقيم الاجتماعية والتيارات السياسية والأوضاع الاقتصادية وغيرها .

كذلك كان للعرب قبل الاسلام تراث خيالي شعبي يستحق الدراسة الجادة ، على الرغم من أنه وصلنا في شذرات في كتب المؤرخين العرب وبعض أبيات الشعر الجاهلي والشعر بعد الاسلام (٦) . وإيام العرب تعكس النزعة الملحمية وهي تروى أخبار ما أنجزته القبائل العربية قبل الاسلام من أمجاد وبطولات مثقلة بكثير من الخيال والعاطفة وهي تكشف بوضوح أن الذات القبلية كانت محور الشعور التاريخي العربي قبل الاسلام وتكشف أيضا عن أن الفكر قد أخذ هذا الاتجاه (٧) .

واختفاء الموضوع التاريخي خلف تراكمات

- (٤) أرنست كاسيرر ، المدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية (ترجمة احسان عباس ، بيروت ١٩٦١م) ، ص ٢٩٥ . شاكور مصطفى « التاريخ على عو علم » ، عالم الفكر ، المجلد الخامس العدد الاول ، أبريل - يونيو ١٩٧٥م ، ص ١٧٦ - ص ١٧٧ .
- (٥) لطفي عبد الوهاب « عالم هوميروس » مقال بمجلة عالم الفكر ، للمجلد الثاني عشر اكتوبر - ديسمبر ١٩٨١م ، ص ١٣ - ص ١٥ .
- (٦) أحمد كمال زكي ، الأساطير (المكتبة الثقافية ، رقم ١٧٠ ، دار الكاتب العربي ١٩٦٧م) ص ٢٨ - ص ٢٩ .
- (٧) حسين نصار ، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي (ط ٠ ثانية ، القاهرة ١٩٦٦م) ص ١٧٣ ص ١٧٤ ، عفت الشوقاوي ، أدب التاريخ عند العرب (القاهرة ١٩٧٦م) ، ج ١ ، ص ١٤٩ - قائم عسيده فاسم ، الرؤية الحضارية للتاريخ (دار المعارف ١٩٨١م) ، ص ٥٩ - ص ٧٢ .

أعمال البطولة وغيرها من جوانب حياة النبلاء
الاقطاعيين (١٢) .

والدراسة التاريخية الحديثة لا يمكن أن
تتجاهل ما تحمله هذه الملاحم التي تعتبر من أهم
نواحي التراث الشعبي قيمة من حيث اعتبارها
مصدرا من مصادر الدراسة التاريخية فهي تدلنا
على التغيرات والثوابت في العواطف والقيم والمثل
التي تركت بصماتها على المجموعات البشرية في
أماكن متعددة من العالم .

ومن ناحية أخرى ، نجد أن حكايات « ألف ليلة
وليلة » قد سربت في ثناياها موقف جماهير
المنطقة العربية من الحروب الصليبية التي كانت
من أخطر الظواهر التاريخية تأثيرا على المنطقة
عسكريا وسياسيا واقتصاديا وفكريا . فقد
سربت الحروب الصليبية التي استمرت حوادثها
تتلاحق على أرض المشرق العربي حوالى قرنين من
الزمان ، طالت نيرانها اللافحة بعض مناطق المغرب
العربي أيضا . ففي حكايات هذه الليالي نجد ثلاث
حكايات ، تزيد ليايلها على مائتى ليلة تدور حول
الحروب الصليبية وهي : -

١ - حكاية الملك النعمان وولديه شركان وضوء
المكان .

٢ حكاية على نور الدين ومريم الزنارية .

٣ - حكاية الصعیدی وزوجته الفرنجية (١٣) .
وقد تطرقت هذه الحكايات الثلاث الى موضوع
الحروب الصليبية بالتصريح أحيانا ، وبالنميح
أحيانا أخرى . وهي تعكس عجز الناس عن تفسير
نجاح الحملة الصليبية الأولى واستيلاء الفرنج على
بيت المقدس وأجزاء أخرى من بلاد الشام (١٤) ،

اخيال الشعبي سمة عامة تميز كافة أنماط التراث
الشعبي التاريخي ، بيد أن هذه الصفة لا تقلل
من أهمية الاعتماد على هذا التراث لدراسة أحوال
المجتمع وأفكاره ، ففي بعض الأحيان لا يجد
المؤرخون أمامهم مصدرا للمعلومات سوى التراث
الشعبي كما هو الحال في تاريخ القبائل الجرمانية
الباكر . وثمة قصيدة ملحمة شعبية هي ملحمة
بيوفولف Beowulf التي تدور حول بطل
جرماني عاش في العصور القديمة ، وقد ظلت
محلا للتداول الشفوي على مدى عدة قرون ثم
جمعت ودونت في منتصف القرن الثامن الميلادي
تقريبا (٨) والملحمة تضم في ثناياها كما مدعشا
من أعلام وأحداث العصور الوسطى الباكرة ، كما
تكشف عن النظرة الجرمانية التلقائية للأشياء ،
وطريقة الجرمان الطبيعية في التعبير عن فكرتهم
عن الدين ، والعالم الآخر ، والمجتمعات الأخرى .
كما تكشف عن المفاهيم السياسية والأخلاقية
التي حكمتهم .

وما نقوله عن ملحمة البيوفولف ينسحب
بالضرورة على ملاحم شعبية شعبية أخرى تخبرنا
عن أحوال أوروبا العصور الوسطى ، مثل أنشودة
نيبلونج التي وصلتنا في نص يرجع الى القرن
الثالث عشر مثقل بأفكار الفروسية التي لا تتوافق
سوى مع مجتمع أوروبا في هذا القرن (٩) وأنشودة
رولان (١٠) التي تتناول بعض مراحل الصراع
بين الفرنجة والمسلمين في فرنسا وأسبانيا (١١)
كما أن لدينا أغنيات المآثر وهي قصائد ملحمة
طويلة ترتبط بشمال فرنسا ، وكانت تصور

Beowulf (transl. and edited by . M. Alexandria) Penguin 1973.

(٨)

انظر أيضا أجزاء من الترجمة والدراسة في :

Norman F. Cantor (ed.), The Medieval World (Macmillan New York, 1968), pp. 61-63 ; Rob
erl Barlow (ed.) The Middle Ages 300-1500.

(٩) نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط : قصة حضارة البداية والنهاية (ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم ، دار
المعارف ١٩٨١م) ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

(١٠) جوزيف نسيم يوسف « أنشودة رولان - قيمتها التاريخية وما أثير حولها من جدل في : ندوة التاريخ الاسلامي
والوسيط (تحرير قاسم عبده قاسم ورأفت عبد الحميد المجلد الأول ١٩٧٥م) ، ص ٧٥ - ص ١٠٤ .

(١١) الطاهر أحمد مكي ، ملحمة السيد - دراسة مقارنة (دار المعارف ١٩٧٩م) .

(١٢) Norman F. Cantor, Medieval History. The life and Death of a civilization (New
York 1969), pp. 378-9.

(١٣) ألف ليلة وليلة (٤ أجزاء . طبعة محمد صبيح - القاهرة بدون تاريخ .

(١٤) ابن القلائس ، ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨م) حوادث سنة ٤٩٢ هجرية ، ص ١٣٦ - ص ١٣٧ .
ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، حوادث ٤٩٢ هـ .

وإذا كان الفرنج الصليبيون أقل عددا وأضعف عدة ، كما كانوا أدنى في مستواهم الحضارى من المسلمين ومع ذلك انتصروا . وكانت تلك صدمة نفسية مؤلمة عجز الحكام عن تفسيرها فلجأ الفنان الشعبى الى التفسير الوجدانى والتعويض النفسى من خلال حكايات ألف ليلة وليلة ومن خلال تحليل هذه الحكايات الثلاث نجد الاطار العام للفكر الشعبى ورؤيته لظاهرة تاريخية هامة مثل الحروب الصليبية ، فالبطل الشعبى يجب أن يجمع بين البعد العسكرى والبطولة ، والبعد الجنسى ، والبعد الدينى / الأخلاقى . بيد أن أهم ما نخرج به من تحليل هذه الحكايات هو ذلك الشعور بالمرارة والكراهية التى علفت بالوجدان الشعبى تجاه الفرنج من جراء الحروب الصليبية (١٥) .

والنموذج الأخير الذى نقدمه فى هذه الدراسة هو « سيرة الظاهر بيبرس » . والنص الذى وصلنا مطبوعا لهذه السيرة هو نص رواية متأخرة فى العصر العثمانى (١٦) . فقد حملت مصطلحات ادارية ومالية واجتماعية وسياسية كثيرة عرفتھا مصر فى العصر العثمانى ولم تكن معروفة فى زمن سلاطين المماليك (١٧) .

« سيرة الظاهر بيبرس » تدور حول شخصية تاريخية حقيقية عاشت فى حقبة تاريخية محددة ، وهو « السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى » الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك . وقد كان هذا السلطان محور كتابات تاريخية كثيرة بسبب شخصيته الفذة التى تجمع فيها كل متناقضات ذلك الزمان ، فقد جمع بين ظواهر التدين والرحمة بالرعية ، والبسالة العسكرية والقسوة ، وجمع بين الذكاء والقدرة

الفاتحة على المناورة السياسية الى جانب ايمانه بالمتجملين والجزعيلات . فقد كان السلطان الظاهر بيبرس شخصية ملء القلب والعين على مسرح تاريخ المنطقة منذ وثب الى عرش السلطنة بعد قتل السلطان قطز .

وقد صاغ الخيال الشعبى سيرة للسلطان الظاهر بيبرس تقع فى خمسين جزءا تضمها خمسة مجلدات متوسطة الحجم يقع كل منها فى حوالى ستمائة صفحة . وبهنا هنا أن نوضح أن النص الأصيل لهذه السيرة ظل محلا للتداول الشفوى عدة قرون بحيث ضم أحداثا وأفكارا ومصطلحات جديدة تراكت عبر الزمان بحيث نجدها طبقات أشبه بالطبقات الجيولوجية .

وفى سيرة الظاهر بيبرس نجد اتجاها فكريا لانتقام من الأعداء الذين هاجموا دار الاسلام وسببوا الخراب لبلاد المسلمين ، فالغول الذين طووا بلدان الشرق الاسلامى ، وداسوا الخلافة العباسية فى بغداد فى غمار غزواتهم الظالمة ، يتحولون فى الصياغة الشعبية التعويضية الى مبرزين فى كثير من المواقف . ويمكن للمؤرخ أن يعتمد على الصياغات الشعبية والدلالات الاجتماعية الكامنة فيها فى اكتشاف حقيقة المشاعر والأفكار الشعبية تجاه ما حدث فى السياق التاريخى .

وفكرة المجتمع المصرى ، فى منظور العامة ، حول الحاكم تتجسد فى النموذج الذى صاغت السيرة فيه شخصية « الصالح نجم الدين أيوب » الذى جعلته مجذوبا لا يرضى لنفسه أن يأكل من أموال السلطنة ، ولا يأخذ شيئا من المملكة ، بل يأكل من كسب يديه (١٨) ، وهو موقف يكشف عن فكرة الناس عن الحاكم الصالح (١٩) ، وعن

(١٥) قاسم عبده قاسم ، بين الادب والتاريخ . ص ٦٧ - ص ٩٦ حيث نجد تحليلا لهذه الحكايات ومضامينها .

(١٦) طبعة عبد الحميد أحمد حنفى ، بشارع المشهد الحسينى بالقاهرة (بدون تاريخ) .

(١٧) وردت مصطلحات مثل « الأوجاقية » الوشاقية ، و « الأغا » ، و « دولتى » ، و « الصناجق » و « العلوفة » ، و « الفرمانات » ، و « المعرجى » ، و « الصدر الأعظم » ، و « القائمقام » ، و « باشة الشام » . . . وغيرها كثير . وهى مصطلحات لم ترد فى الوثائق أو المصادر التاريخية لعصر سلاطين المماليك . انظر : سيرة الظاهر بيبرس ، ج ١ ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٣١١ ، ٣٦٧ ، ٣٩٧ ، ٤٨٩ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٤٣ ، ٥٤١ .

(١٨) السيرة ، ج ١ ص ٢٩ .

(١٩) تكشف السيرة (ج ١ ، ص ١٨٨) عن أن الصالح نجم الدين أيوب هو ولى الله ، فهو يتكلم بالرموز والاشعارات التى توضح أنه يعلم الغيب ، ويعرف الأحداث قبل وقوعها وربما تكون السيرة قد صاغت شخصية الصالح نجم الدين أيوب فى هذا الشكل الدينى تمهيدا لظهور بيبرس ، وربما يكون السبب ما قام به من جهود ضد الحملة الصليبية السابعة على الرغم من مرضه .

القاضى على النحو والذى أنتجه الخيال الشعبى تشى بأن القضاة كانوا أدوات لقهر الناس لحساب الحكم فى أواخر عصر سلاطين المماليك ، وفى العصر العثمانى أيضا • وازاء هذا الاختلال فى مفهوم الحق وفكرة العدالة فى العقلية العامة للمجتمع كان هو الحافز لانتقام الخيال الشعبى من القضاة • ومن الأمور اللافتة للنظر أن المؤرخ المصرى ابن اياس يذكر أن أحد الشعراء نظم قصيدة طويلة هاجم فيها فساد القضاة ، و « دارت هذه القصيدة على السنة الناس » ، فغضب القضاة وأرادوا معاقبة الشاعر ، ولكن العامة دافعوا عنه وتولوا حمايته •

★ ★ ★

وفى تقديرى أن من يبحث فى ميدان التاريخ الاجتماعى والحياة الفكرية لا يمكنه أن يغض النظر عن الاستعانة بالموروث الشعبى • إذ أن الفن والأدب الذى يبدعه الشعب ابداعا جماعيا تراكميا فى مرحلة تاريخية ما ، مصدر مهم من مصادر المعرفة التاريخية ، فالفن والأدب يعكس كل منهما روح العصر ، ويساعد المؤرخين على اعادة تركيب صورة الماضى ، واجابة الأسئلة التى تدور حول هذا الماضى • إذ أن الفن والأدب الشعبى - وهو تعبير كلى عن المجتمع الانسانى - يساعدنا على فهم انسان العصر الذى يدرسه بأماله وهمومه ، برفعته وضعته ، بنجاحه وافتقاره ، بقيمه ومثله وأخلاقياته ، فضلا عن حياته الفكرية من حيث الأفكار التى توجه حركته ، والرؤى الاجتماعية التى يرى من خلالها العلاقات والأمور فى الكون ••• وهذه كلها أمور لا نجد لها أثرا نهتدى به فى المصادر التاريخية التقليدية التى لم تفقد أهميتها بسبب هذه المصادر الجديدة •

رأيهم فى الضرائب التى تفرضها الدولة عليهم • وفى هذا الصدد نجد فى مصادرنا التاريخية التقليدية ما يؤكد هذا الموقف الذى تجسده السيرة •

وتكشف السيرة عن رؤية العامة للدين من خلال اهتمامها الشديد بالصوفية منذ بداية أحداثها وحتى الصفحات الأخيرة • وهو أمر يوضح لنا أن الجو الثقافى السائد زمن النص الذى نعتمه عليه كان أريجته الحرافات والشعوذة ، بل ان الحركة الصوفية فى ذلك اتخذت أشكالا وصورا غريبة لفتت انتباه الرحالة الأجانب والمسلمين الذين زاروا مصر فى ذلك الحين • ونجد تأكيدا لهذه الرؤية الدينية فى النبوءات الكثيرة التى ساقتها السيرة على السنة الصالحين عن أن بيبرس سوف يملك مصر ، وفى الرعاية التى أحاطه بها أقطاب الصوفية منذ قدومه من الشام مريضا حتى تولى عرش مصر • وكذلك عن تصورهم بأن الحضر « عليه السلام » الذى علم بيبرس الحروب كلها (٢٠) •

ومن ناحية أخرى ، تكشف « سيرة الظاهر بيبرس » عن نظرة الاحتقار التى نظر بها أهل المدن نحو الفلاحين ، إذ تقول السيرة على لسان أحد المماليك ان « الفلاح قليل الانصاح » (٢١) •

بيد أن أهم ما يلفت النظر والانتباه فى صفحات « سيرة الظاهر بيبرس » هو ذلك الموقف العدوانى الساخر من القضاة والوالى وغيرهم من رجال الحكم ، إذ أن السيرة تصور القضاة فى صورة مهينة ، فالقاضى شخصية ضعيفة مهزوزة وهو شخص يميل الى الدس والوقيعه ، ويخاف على الدوام من ابن البلد • بل ان السيرة تجعل القاضى نصرانيا يتخفى وراء الاسلام (٢٢) • ولا شك فى أن الصياغة التعويضية لشخصية

(٢٠) السيرة ، ج ١ ، ص ٢٥٨ - ص ٢٦٨ ، ص ٣٦١ ، ص ٥٤٦ •

(٢١) السيرة ، ج ١ ، ص ٨٤ •

(٢٢) نفسه ، ج ١ ، صفحات ١١١ ، ١١٤ ، ٢٠٦ •